عدد 12 (1999) ، 165- 171

صورة المدينة والريف عند إبراهيم عبد القادر المازني

ملخص

إن "المازني" من أصل مديني، لم يتوقف عن التعبير عن انتمائه لمدينة "القاهرة" مسقط رأسه. ولكن ليس معنى ذلك أنه كان يحبها ويعجب بكل ما فيها، ولذلك لم يتوان عن نقد بعض المظاهر السلبية التي لاحظها في مدينته، وكان يذهب في الكثير من الأحيان إلى كشف تناقضاتها وعيوبها.وقد اتخذ "المازني" من القاهرة فضاء للتحليل والنقد ملاحظا أنها تحد بطريقة مأساوية من حريته وتفرض عليه قواعد صارمة وضغوطات شنيعة.

وإذا كان "المازني" يبدي كرهه للمدينة صراحة، لما تتوافر عليه من فوضى وعناصر مزعجة، فإن الريف لم يسلم هو الأخر من انتقاده، على الرغم من بساطته ونزاهته، لما يشتمل عليه من مظاهر التخلف.

ولكن الذي أثار إعجاب الكاتب كثيرا واستولى على قلبه هو منظر الصحراء في ثباتها وامتدادها وهدوئها. وهذا الإعجاب إمتد إلى درجة التقديس والتشخيص. وليس هذا أدل سوى على أن " المازني " كان شخصية رومانسية حالمة، لا يقبل بالقيود ولا يرضى سوى بالحرية في عالم فضاءاته من صنع التجربة لا من صنع القرارات والقوانين.

د. عز الدين بوبيش
كلية الآداب واللغات
جامعة منتوري
قسنطينة، الجزائر

عاش "المازني" معظم حياته في مدينة "القاهرة" مسقط رأسه، حيث نشأ وتعلّم، ومارس مهنة التعليم، واشتغل بالصحافة. وكان ينتقل منها إلى بعض مدن مصر الأخرى ولا سيما إلى مدينة "الإسكندرية" القريبة من إقامة بعض أقاربه؛ فهو ابن المدينة رغم ما نسجله من تنقلات متكررة إلى الريف لزيارة بعض أقاربه هناك. لقد تشبع "المازني" بروح المدينة إلى حدّ كبير جعله يحن إليها كلما غاب عنها زمنا قصيرا (1). ولا يعني هذا أن "المازني" كان راضيا عن حياة المدينة وناقما على حياة الريف؛ فقد كانت للمازني مواقف حب وإعجاب بالمدينة، كما كانت له مواقف حب وإعجاب بالريف أيضا، إلا أنه لم يرض عنهما معا لما وجده من قيود تضرب نسجها عليهما (2). ولكن يظل الريف بنقائصه - في نظره - أكثر تماسكا من المدينة؛ فقد كان يشعر فيه "أن هناك روحا

منتوري، قسنطينة، الجزائر1999.

Résumé

Al-Mazini est d'origine citadine et a toujours revendiqué son appartenance à la ville du Caire, sa ville natale. Mais cela ne veut pas dire qu'il aimait celle-ci et qu'il était attiré par tout ce qui s'y trouvait, sinon il aurait cessé de critiquer certaines manifestations négatives qu'il avait remarquées dans sa ville. Il lui arrivait même de dévoiler ses contradictions et ses défauts. Il avait choisi le Caire comme espace d'analyse et de critique remarquant qu'il limitait tragiquement sa liberté et lui imposait des règles et pressions affreuses.

Et si Al-Mazini dévoile franchement son animosité vers la ville pour ce qu'elle représente comme anarchie et éléments de désagrément, la campagne, à son tour, n'est pas également épargnée, malgré sa simplicité et sa sincérité, étant donné qu'elle renferme des manifestations du sous-développement.

Cependant, ce qui a attiré fortement l'admiration de l'écrivain et s'est emparé de son cœur, c'est le paysage saharien avec sa stabilité et son calme. Cette admiration s'est agrandie jusqu'à devenir de l'adoration et de la vénération.

Ceci trouve sa justification dans le fait qu'Al-Mazini avait la personnalité d'un romantique rêveur, n'acceptant pas les chaînes et ne se contentant que de liberté dans un monde où les espaces sont le produit de l'expérience, non des décisions et

تمسك البيت وتحفظ عليه وحدته" (3).

تساءل "المازني" في قصة "ابراهيم الكاتب" على لسان بطله "ابراهيم" عن معنى المدنية فقال: "ما هي هذه المدنية؟ أهي شرط مرتبط بالإنسان والمروءة؟ بانقطاع العذاب والتعذيب؟ كلا... أم ترى للمدنية علاقة بحقوق الفرد في ظل الديمقراطية؟ ولا هذا أيضا... أم المدنية مرتبطة بالشرف والنزاهة؟ حتى ولا هذا فإن الفساد والرشوة فاشيأن في أرقى الجماعات مدنية حتى لكأن المدنية تعين على إستفاضتهما. ماذا إذن؟ أترى علاقتها بالفضائل الجنسية؟ وهنا ابتسم وقال لنفسه: إن جوّ المدنية أصلح ما يكون للرذائل الجنسية" (4).

هذه هي صورة المدينة في شكلها العام، وفي جميع أحوالها كما يرى "المازني"وقد كررها في قصة "إبراهيم الثاني " على نحو آخر من الوصف، يقول فيه: "وليست المدنية سوى صقل لا يمنع أن الحيوانية - وهي الأصل - كامنة متحفزة للظهور على الرغم من كل هذا الصقل إذا أتيحت لها الفرصة، أو استثارها مستثير قوي. وما زالت أساليبنا في حياتنا هي أساليب الحيوان، أو الوحش الضاري، ولكنها ملطّفة مهذّبة مرققة" (5).

مدينة "القاهرة" لم تسلم من أنواع الفساد المتفشية في حياة المجتمعات المتحضرة ولم تحقق لنفسها التحرر الكامل من العادات والتقاليد المستولية عليها، شأنها في ذلك شأن باقي المدن المصرية الأخرى. "إن المفروض أن المرء في المدن يصنع ما بدا له، ولكن استبداد العادات والتقاليد يقضي على كل نزعة إلى التحرر، ولا يدع للمرء مفرّا من النزول على حكم هذه العادات والتقاليد" (6). فالمازني لم يقبل هذه العادات والتقاليد لأنها سخيفة منافية للعقل والواجب وصارمة أيضا، وهي حصن منيع بناه الجهل لذلك ينبغي اقتحامه (7).

ومثلما لم تسلم المدينة من هذه العادات، فإن الريف هو الآخر كان أسيرا لها بدرجة أكثر قساوة، مما دفع "المازني" إلى أن يفكر في قيود الريف التي تحيط بالمرء من كل جانب وينسى أن للمدينة قيودها (8). كما كان يأسى لأحوال أهل الريف ويتعجب من طبيعة حياتهم التي تفتقر إلى أدنى وسائل الحياة. "فالحياة [في الريف] أشبه بمناوشات مستمرة، فالمرء يجد نفسه مثلا يتناول طعامه وحده في أية ساعة، وقد تظمأ في الليل فتجد القلة فارغة أو لا تجد القلة على الإطلاق... فمرة ينام المرء على مصباح يضاء بالبترول، ومرة لا يجد إلا قنديل زيت أو شمعة، وقد لا يجد شيئا من هذا كله. ويذهب المرء إلى الحمّام فلا يستطيع أن يوصد الباب إذ لا مفتاح ولارتاج، وهذا عجيب" (9).

لكن الشيء الذي لايتعجب منه "المازني" في الريف رغم فقر الحياة فيه هو أن فلاحيه يتعلقون بأرضهم ويحبونها ولا يستطيعون فراقها، ويبذلون في سبيلها ما يسعهم من جهد لترقيتها وتجديدها، حتى تستمر في عطائها وتنتج على الدوام. "فلم يعد عجيبا أن يتدفق حبّ هذه الأرض في عروق أبنائها ويجري مع دمائهم، وهم الذين يفلحونها ويتعهدونها بما يزيدها خصبا ويرصدون لها عيونهم وقلوبهم حتى يعودوا من فرط ألفها لايطيقون أن يبرحوها وأن تخطىء لحاظهم غضارتها ونضارتها وخضرتها النديّة وشمسها الدافقة الحرارة وجوّها الطليق ونسيمها العطر، ومطرها المنهمر وسحبها المتكاثفة طبقات بعضها فوق بعض، وماشيتها، وكل ما حفلت به من حيوانات صغيرة وكبيرة لها كل ساعة - بل كل لحظة – تجديد" (10).

وقد ارتاح "المازني"إلى هذا التفاني في حب الفلاحين للأرض وفي إقبالهم على العناية بها. وعدّ قيامهم بأعمال الزراعة رياضة كافية تغنيهم عن اللعب خارج البيوت "وما حاجة الفلاح الذي يقضي يوما عاملا في الحقل إلى كرة أو متوازيّين؟"(11). فالحياة في الريف بسيطة لا تستحق التكلف في الريف كل شيء يهون(12). ولكنّ "المازني" لم يستطع التكيف مع هذه الحياة ولا سيما مع أهاليها؛ لأنه ابن المدينة والعلم، وهم أهل الجهل والحلافة (13). وكان لا قبل له باحتمال الفصول الباردة في الريف. لهذا كان يرتاح إلى المدينة أكثر من الريف. رغم أنه أجمل من المدينة (14). وكان ينشد الرحيل عنه متأسفا عن قدومه إليه "الواقع أن مجيء إلى هنا كان خطأ.. يجب أن أعود أدراجي أو أن أرحل إلى الإسكندرية فهي من هنا قريبة.. إن أعصابي ضعيفة ولا قبل لي باحتمال هذه الفصول الباردة.. كيف يمكن أن أطيق كل هذا الجهل والحلافة ؟" (15). فعقلية أهل الريف عقلية متخلفة لم تستثن حتى مثقفيها، لذلك كان "ابراهيم" يرتاح إلى "ماري" بنت المدينة لأنها تفهمه على عكس "شوشو" بنت الريف، على الرغم من أنها متعلمة وفي المدارس الفرنسية (16). كما كان يتجاوب مع "ليلى" لأنها فتاة متحررة وبنت المدينة أيضا، إنه وهو معها كأنه يتعلم رقصة الحياة على إيقاع الشباب (17).

لقد كان ضجر "المازني" من حياة المدينة قويا لما فيها من فوضى عارمة؛ فهي كثيرة السيارات حتى لكان بلاده هي الوحيدة التي يجتمع فيها هذا العدد الضخم من السيارات التي تقتني من أوروبا وأمريكا كما يقول (18). ويتابع قوله: "ولم يكن نظام المرور في ذلك الوقت وافيا بالحاجة بل لم يكن ثم نظام ما. فكان كل سائق يمضي على هواه، إلى حيث يشاء وهو آمن أو مجازف" (19).

ولكن ضجره من الريف كان أقوى. وهو ما كان يدفعه إلى أن يقول عنه في كل مرة "قبح الله الريف وساكنيه" (20). "هذا الريف الذي يبكر ناسه في النوم وتبكر أبقاره في اليقظة" (21). "ويجب على من يبغي الراحة والنوم العميق في الريف أن يأخذ معه كمية من الأسبرين أو الفيرامون تكفي له وللبقر عند الحاجة" (22). "لماذا لم أنم؟ سأنام حولا كاملا متى عدت إلى القاهرة ا ماذا كنت أصنع؟ لقد كنت أريد أن أخرس هذه البقرة التي أزعجتني كما لم تزعجني سيارات القاهرة وأبواقها وترامها وصياح البائعين

فيها. ذلك كله هناك غير مستغرب. وأعصاب المرء مستعدة له بسبق التوقع وبالعادة. ولكن هنا حيث يقولون إن السكون سابغ والهدوء مطبق محيط، والمرء لا يتوقع شيئا من الضوضاء، والأعصاب متفترة مسترخية من الاطمئنان والأمن، تكفي بقرة واحدة لإطارة العقل" (23).

نلاحظ هنا هذا الوصف الجميل الذي لايصور الواقع فقط بل يعكس أيضا أسلوب "المازني" وسلاسته في نبرة لاتخلو دوما من تهكم.

إذن "المازني" لم يكن ليرضى عن المدينة ولم يكن ليرضى عن الريف أيضا إلا بقدر ضيق ومحدود جدا، ولكنه أحب الصحراء وأرضها التي وطأتها أقدامه حبا لا حدود له، وكان يلجأ إليها كلما ضاق صدره من حياة المدينة أو الريف وهو يقول: "فأين عن صحرائي أعدي؟ صحرائي التي لا يلتقط الطير فيها حبا ولا يجاوب في خرابها قلب قلبا. ولا يغيرها صيف أو شتاء ولا يدوم عنها إلا العفاء؟ كذلك كانت قديما وكذلك أبقاها الله... لي ا ولكم توهمتها وأنا أضرب فيها، وأطوف في فيافيها وجها مستعارا ويبدو فيه "الوجه الأعظم" متقنعا ا ولكم وقفت أدق رملها بقدمي وأفحص فيه بعصاي وأدمدم كالذي يريد أن يرقيها بالعزائم ليشفيها من هذا السّحر الذي ضرب عليها وألزمها المحل. ولقد أعجب في الليالي القمراء كيف لا تحسر وتنفض عنها هذه الرمال وتبرز للقمر الذي يناجيها ضوؤه وينام على صدرها المتموج في مثل وشي الرياض تنفتح روحا وريحانا، ويتداعى الطير على أيكها إعلانا، وتتهدل أغصانها فتسمو "وتمس الأرض أحيانا" (24).

فإلي هذه الصحراء يرتاح "المازني" لأنها مؤنسته الصادقة الوفية لطبيعتها فهي لم تغير نمط حياتها نحوه، ولم تتنكر له مثلما تنكرت له عشيقاته، بل كانت من فرط اخلاصها له تروم إلى إسعاده غير أنها لا حيلة لها فيما قضي به. لنستمع للصحراء في النص الآتي وهي تناجي "المازني": "ليتني استطيع أن أسدد خطاك، وابرز لك الطريق الذي تغوص فيه قدماك وأريك غايتك قبل مذهبك، ولكنّ لنا آيينا لا نملك خلافه، وقانونا لا تستطيع تأويله واعتسافه. وما نحن وأنت إلا سواء. وهل تراك تملك من امرك كثيرا أو قليلا؟.... بودّي لو تماسكت حبّاتي. وثبتت ذراتي، ولانت مواطيء لقدميك ولكني مثلك لا حيلة لي فيما قضي به" (25).

وهكذا يتجاوب كاتبنا مع الصحراء وتجعله يفكر كيف يلازمها ويأخذها معه آينما حل. وفي النص الآتي يجعل "المازني"الصحراء تتكلم لتتمنى أن تكون معه دوما كما يتمنى العاشق أن يكون دوما مع معشوقته، ثم يلتفت لفتة بارعة يرى فيها نفسه، إذ هو مجدب في ظاهره ولكنه زاخر في باطنه بقوة الحياة وكذلك الصحراء على جدبها الظاهر مفعمة بالخيرات المدفونة في باطنها: "هذه الصحراء العارية التي تكتنف كل شئ، والتي عظم وقعها في نفسه حتى راح يتمنى أن يرزقه الله القدرة على نقل هذه الصحراء وحملها معه في حلة وترحاله وفرشها وبسطها حوله في حيثما يكون من الأرض-نعم ليت هذه في وسعه إذن لاستطاع أن يطويها كلما غادر بقعتها وأن يلفها مع ثيابه وأشيائه في حقائبه، حتى إذ نزل مكانا واستوحشت نفسه آنس بأن يخرجها وينشرها أمامه و بتأملها ويذكر بها لياليه فيها بما اشتملت عليه - فقد صارت نفسه فيها

يرى كهذه الصحراء، تربة بكر تغذوها الشمس ولكن خيرها دفين فيها.فظاهرها مجدب ووجهها أجود، ولا علم لأحد بما في جوفها وبما كان يمكن أن يخرج منها لو أن الحياة لم توسعها حرمانا مما أغدقته على غيرها من رقع الأرض وكذلك هو: أخطاه الحظ في ناحية، فأجدب ظاهره وبقي باطنه زاخرا بقوة الحياة المكنونة فيه' (26).

إن نشوة هذه العاطفة في نفس "المازني " تجاه الصحراء هي حنين إلى الطبيعة التي كان يهرب إليها كلما ضاق به الحال من جراء هول المدينة وسجن الريف. وما أكثر ما كان "المازني " يعيش حالة العزلة والانفراد في حياته؛ لأنه لم يجد رابطة شافية لنفسه تربطه بالمجتمع في حين كان يجدها بشكل مرض مع الطبيعة، ولم يضجره إلا أن يكون محبوسا بين الجدران وكان بوده أن يخرج دوما مع محبوبته إلى
الحقول (27).

و "المازني" يرى أن المرأة جزء من الطبيعة أو هما سواء بسواء، ولذلك كان يهرب إلى المرأة لأنه بذلك يهرب إلى الطبيعة، وعندما ينتقل من امرأة إلى أخرى فكأنه ينتقل من حديقة إلى أخرى.

وكان يتفنن في خلق مظاهر الطبيعة الثائرة ويحرص عليها، لأن العودة إلى الطبيعة تعني ـ عنده ـ الاعتراف بالتنافس المستمر بين العقل والغرائز، بين الفرد والجماعة بين القيود والحرية. ومعنى هذا بعبارة أخرى أن " المازني " كان يعاني كثيرا من الانفصال الرهيب بينه وبين المجتمع: "إبراهيم أنسان مثقف يفهم الحرية الفردية فهما خاصا، ويعلو بالفرد على المجتمع أحيانا، ولا يؤمن ببعض العقبات والاعتراضات التي يقيمها المجتمع حرصا على سلامته وبقائه" (28).

وهذا هو سبب نشوء الخلاف بينه وبين المجتمع إذ أن المجتمع يؤمن بأخلاقيات وجماليات مبنية على الشعور بالموانع والعوائق. والفرد المثقف يؤمن بأخلاقيات وجماليات أخرى مبنية على الشعور بالحرية. والانطلاق، وتوكيد الذات، وإعلاء صوت الغريزة ... وقد طلب " المازني " من " ابراهيم الكاتب " أي طلب من نفسه ـ
أن يعطي الإنسان جميع طاقاته أو أكثرها، بينما وقف المجتمع حائلا دون هذه الطاقات لأنه رآها منافية للرجولة، والخلق الرزين. ولهذا يقول على لسان " إبراهيم الكاتب "
"المجتمع يبدأ البحث من نقطة الحدود، وابراهيم الكاتب يبدأ البحث من نقطة الحرية. إبراهيم الكاتب يبدأ تصوراته من نقطة الإنطلاق شبه الطبيعي، أما المجتمع فيبدأ مفهوماته من نقطة الشبهات، والفطنة المرتبطة بسوء الظن وإقامة الحد" (29).

وهكذا فالمازني، حرصا منه على فردية وحبا وشغفا بحريته، نشأ هذا الصراع بينه وبين المجتمع وكان صراعا يشتد كلما تجاوز الإنسان البداءة إلى الرقي والمدينة، ومن أجل هذا بغض " المازني " المدينة مع أنه ابنها، لما فيها من عيوب وقيود. كما بغض الريف لما فيه من جلافة وجهالة وأثر مهاد الطبيعة لأنها تعبير عن الحرية والانطلاق على نحو ما رأينا.

يرى الدكتور "عبد الحميد إبراهيم" من خلال حديثه عن قصة "إبراهيم الكاتب" أن "المازني "ابتعد عن آلام الشعب، وحبد الانعزال عن أجلاف الريف ولغطهم وأبى التعبير عن الطبقة الكادحة، وعن هؤلاء الفلاحين الذين لا ترد أسماؤهم في القصة إلا

عرضا وبطريقة تثير السخرية والتقزز مع أن الفرص كانت متاحة لذلك، وهو يقصد من كل هذا أن" المازني" ليست له حاسة شعبية يستطيع من خلالها تصوير شقاء الفلاح وبؤسه، وأنه أناني يريد أن يغترب إلى بيئة غير البيئة التي يسعى فيها قومه (30).

وبعد هذا الحكم الذي أصدره عن قصة "إبراهيم الكاتب "انتقل إلى حكم أعم وأشمل رأى من خلاله أن المازني "لا يقصد بقصصه إلا التسلية والفكاهة المحضة، ولعله رأى أن الروايات البوليسية وقصص الحب والقبلات تشيع بين طائفة كبيرة من القراء، فأراد أن يكتب لها حتى يضمن لقصصه الرواج، وأراد أن يحدثها عن الأشياء

التي حرمت منها في واقعها ويلذ بها أن يسمع عنها في الكتب والروايات، فجعل يقص عليهم قصص النساء اللواتي يشربن السجائر ويذهبن إلى البارات ويحدثهم عن (العقد الضائع ـ السيارات المسروقة ـ البحث عن الذهب...) كما يصر على تسمية

بعض قصصه بهذه الأسماء المثيرة" (31).

فهذه الأحكام التي أصدرها الدكتور" عبد الحميد إبراهيم "في حق " المازني" وقصصه يجعلنا ننظر إلى "المازني" وكأنه رجل علم الإجتماع، يجب عليه أن يدرس الظواهر الاجتماعية ويحللها، وأنه ليس رجل فن وإبداع تكفينا منه العبارة الجميلة والاشارة واللون، أليس عنوان قصة "إبراهيم الكاتب" أدل على مضمونها ؟ إنه يتحدث عن إنسان مثقف إصطدم بواقع مر، فراح يبحث عن واقع جديد يحتويه من خلال علاقاته مع المرأة. فكيف نطلب منه أن يعالج الفقر ويغوص في تحليله. وقد حدثنا عن اكتوائه به؟ وكيف نفرض عليه العيش مع الفلاح وهو ابن المدينة ثم ألم نقل بأن "المازني" كان قريبا من شعبه، ومن واقعه، يستمد منه صوره ومعانيه من مثل ما ذكرنا حتى وإن فر من هذا الواقع وابدى رفضه نحوه.

الهوامش

[1]- أنظر المازني: إبراهيم الكاتب، ص 42.
[2]- المصدر نفسه، ص *18*.
[3]- المصدر نفسه، ص *94*.
[4]- المصدر نفسه، ص *184*، 185.
[5]- المازني: إبراهيم الثاني، ص *21*.
[6]- المازني: إبرايم الكاتب، ص 93.
[7]- المصدر نفسه، ص 105.
[8]- المصدر نفسه، ص 18.
[9]- المصدر نفسه، ص 94.
[10]- المصدر نفسه، ص 81.
[11]- المصدر نفسه، ص 94.
[12]- المصدر نفسه، ص 39.
[13]- المصدر نفسه، ص 42.
[14]- المصدر نفسه، ص 79.

[15]- المصدر نفسه، ص 42.
[16]- المصدر نفسه، ص 42.
[17]- المازني: إبراهيم الكاتب، ص 228.
[18]- المازني: إبراهيم الثاني، ص 194.
[19]- المصدر نفسه، ص *195*.
[20]- المازني: إبراهيم الكاتب، ص 42، 77.
[21]- المصدر نفسه، ص 66.
[22]- المصدر نفسه، ص 68.
[23]- المصدر نفسه، ص 70.
[24]- المصدر نفسه، ص 306.
[25]- المصدر نفسه، ص 306 - 307.
[26]- المصدر نفسه، ص 184.
[27]- المصدر نفسه، ص 77.
[28]- مصطفى ناصف: رمز الطفل دراسة في أدب المازني، الدار القومية الطباعة والنشر - القاهرة 1965، ص 17.
[29]- المصدر نفسه: ص 17 - 18.
[30]- عبد الحميد إبراهيم: القصة العصرية وصورة المجتمع الحديث من أوائل القرن العشرين إلى قيام الحرب العالمية الثانية. دار المعارف بمصر،ط 1، 1973، ص 168 - 171.
[31]- المرجع نفسه: ص 171.

□